الخوف الذي كشف الغطاء

The cover-revealing fear

إذا استمر هذا التيه فحتى بواب السماء لن تظل مفتوحة

If this wandering continues, even the gates of heaven will not remain open

أ.د. سامر جميل رضوان

Prof. Dr. Samer Rudwan

جامعة نزوى

University of Nizwa-Oman

سواء كانت أزمة فيروس كورونا Corona أزمة مصطنعة أم حقيقية فإن النظر لهذه المشكلة يختلف باختلاف الزاوية التي تنظر إليها للمشكلة. إلا أنها في الوقت نفسه كشفت الغطاء عن كثير مما كان كامناً على مستوى الأفراد والمجتمعات والدول.

لا شك أن الخطر تهديد حقيقي، وليس تهديداً مصطنعاً، ولا يمكن التقليل من أهميته، إلا أن هذا ليس موضوعنا.

فعلى مستوى الأفراد فقد انكشف حجم الهشاشة التي نحن فيها. لقد ولد فيض المعلومات الكثيرة والمتناقضة وضعف الإمكانيات الفردية للسيطرة على الخطر مشاعر التهديد، وظهرت بالنتيجة تصرفات قد تبدو غير مفهومة، كهوس شراء ورق التواليت والتخزين والمبالغة في تصرفات وظيفتها توليد الإحساس الوهمي للسيطرة على خطر يحمل صفة التهديد الحقيقي، وفي الوقت نفسه فإن الفرد لا يملك الكثير من إمكانيات السيطرة والتحكم.

في مواجهة التهديدات الغامضة يتصرف الناس لتسكين الخوف وفق أنماط مواجهة متنوعة أكثرها وضوحاً هي النمط الحساس الباحث عن المعلومة أو النمط التجنبي.

والنمط الحساس الباحث عن المعلومة يريد معرفة أكبركم من المعلومات حول ما يواجهه، ليطمئن. وفي حال كانت المعلومات المتوفرة غير دقيقة ومتناقضة ومتغيرة فإن هذا لا يقود إلى تسكين الخوف بل يعمل على تفاقمه وزيادته إلى درجة كبيرة.

والنمط الآخر المتجنب الذي لا يريد يعرف أي شيء عن الخطر المحقق، لأن المعرفة تزيد من القلق الكامن. فيحاول أن يتجنب أية معلومة. إلا أنه يجد نفسه محاطاً بكم كبير من المعلومات عبر وسائل التواصل والإعلام وغيرها، الأمر الذي يقود إلى تفاقم الخوف.

وفي حالات الخطر يتم تعطيل الكثير من العمليات الثانوية ويتم تركيز الانتباه على مصدر الخطر، بواسطة آلية وهي الآلية التي حمت أجدادنا في الماضي. فتتوقف المناطق القشرية العليا في الدماغ ومراكز التحكم والسيطرة واتخاذ القرارات عن العمل وتتولى السيطرة المناطق ما دون القشرية. والمناطق التي لها دور مركزي في المعالجة المركزية للانفعالات في اللوزة (Amygdala) هي الجهاز اللمبي (الحوفي) ومناطق التخزين في قرين آمون Hippocampus . فتتنشط محتويات الذاكرة المرتبطة بالتهديد. ويتعزز ذلك من خلال تنشيط هرمونات الضغط (الكورتيزول) فيحصل نوع من التفكك وتضطرب مناطق القشرة في الفص الجبهي فيختل التفكير المنطقي.

إدراك الإنسان للخطر وغياب المعلومات أو تناقضها، وضعف إمكانيات التحكم تدفع الفرد إلى القيام بتصرفات لتهدئة القلق وزيادة الإحساس بالسيطرة من خلال سلوك الشراء والتخزين المبالغ به والتصرفات التي تكاد تشبه السلوك الوسواسي القهري كالمبالغة في استخدام المعقمات والمطهرات وغيرها من المواد الكيماوية والتي وصلت لدى البعض إلى إلحاق الأذى والتسبب بآثار جانبية وخيمة.

على المستوى الاجتماعي ونتيجة لذلك تسود غريزة القطيع: إذا يزداد التشكيك بالقرار المنطقي الفردي وينجرف المرء مع سلوك الجماعة فيميل إلى تبني الأفكار الشائعة دون تدقيق منطقي لها وتصديق الإشاعات والمعلومات. وهذه الآلية تشبه تصرفات القطيع عند مواجهة الخطر. فعندما يفاجأ الشخص بمجموعة أفراد يركضون خائفين فإنه يميل للجري معهم دون التفكير بسبب هذا السلوك.

تجلت العنصرية والتمييز العنصري بشكل واضح ضد الآخر المختلف كموضوع إسقاط لكل الشرور، فأصبح الغريب، الأجنبي، الوافد، مصدراً مشكوكاً فيه للعدوى، فقد ظهرت في بعض المجتمعات حالات من الهلع والإقصاء والعزل والتشكيك وغيرها من التصرفات التي عصفت بكل مظاهر الإنسانية المصطنعة التي سترت فيها مجتمعات كثيرة عوراتها حتى الآن.

على مستوى الدول فقد انكشف الوجه القذر لكثير من دول العالم في تعاملها مع الظاهرة واستغلالها لأغراض سياسية، وغياب روح التضامن. وعلى المستوى الداخلي فقد تباينت استجابات الدول للخطر المهدد، ولكن سلوكها يشبه إلى حد ما سلوك الأفراد في بداية التعامل مع الظاهرة، غير أنها جميعاً قامت باتخاذ إجراءات للتعامل مع الخطر المهدد، إلا أنها على المستوى السياسي فقد اختلفت استجاباتها باختلاف توجهاتها السياسية ما بين الإنكار أو الاعتراف أو التسابق في

استعراض الإجراءات أو الادعاء باختراع اللقاحات، أو تبادل الاتهامات أو نشر المعلومات المظلمة والكاذبة أو توجيه الانتباه عن الخطر الحقيقي إلى أمور جانبية كالمؤامرة وغيرها.

بعض الدول برهنت أن الإنسان آخر اهتماماتها وتركزت الناس لمصيرهم ونهباً للقلق يفتقرسهم. وعلى المستوى الإعلامي صدرت للخارج مبالغة في الاهتمام وعلى المستوى الداخلي تركت الناس لمصيرها في البداية إلا أنها أدركت خطورة الأمر وأن حتى مسؤوليها ليسوا في مأمن.

الإجراءات التي تم اتخاذها من قبل الدول تهدف إلى أمرين: الأمر الأول تسكين القلق من خلال توجيه الناس إلى الإجراءات الملموسة الواجب اتباعها، والتي تتغير بزيادة المعرفة والتي تتداخل كثيراً مع المعلومات المتناقضة التي تسود في وسائط التواصل الاجتماعي والتي يقوم بنشرها الأشخاص إما للخوف المسيطر عليهم أو لأغراض أخرى تهدف إلى التلاعب فتزيد التشكيك.

الأمر الآخر: من خلال إجبار الناس على البقاء في بيوتهم تمارس الدولة سلطتها وسيطرتها على البشر يؤيدها في ذلك خطر حقيقي محقق لا يستطيع المرء إنكاره أو الاعتراض عليه، وتولد لديهم الإحساس بأنها حاضرة وتحميهم وأنها ضرورة لا بد منها ومن ثم فإن التبعية والخضوع شرط لا بد منه لتوفير هذه الحماية. إلا أن التفاوت في تطبيق الإجراءات وعجز بعض الدول عن السيطرة على الوباء والتباطؤ في اتخاذ الإجراءات سيكون له تأثير عكسي، خاصة مع زيادة الإجراءات، وتضعف الأوضاع الاقتصادية.

بعض الدول وجدت نفسها في مواجهة رجال الدين الذين تمردوا على تعليماتها، ضاربين عرض الحائط بالخطر ومسببين بتصلبهم وجمودهم كوارث لا تحمد عقباها. ومع ذلك لم يتم محاسبة هؤلاء قانونياً، ربما لأن هذه الدول مازالت غير واثقة من سلطتها وتخاف من تأليب الناس

على مستوى القطاعات المختلفة فقد كانت الأزمة فرصة لكشف مدى التضامن الفردي والاجتماعي في بعض المجتمعات، خاصة بالنسبة لأولئك من الطبقات ذات الأوضاع الاقتصادية الصعبة ومدى بشاعة السلوك الاستغلالي الذي تمت ممارسته من خلال زيادة الأسعار واستغلال الفرصة وحرمان طبقة واسعة من السكان من المواد الأساسية التي هي بحاجة إليها. هذا السلوك الأناني يمثل سلوكاً تاريخياً معروفاً في المجتمعات كلها والتي تسود فيها الأنانية والروح الفردية.

كورونا والديكتاتورية والتعصب والجهل واضطرابات الشخصية

شكل كورونا فرصة كبيرة لأنظمة كثيرة تمارس السلطة بالقبضة الحديدية، ونتيجة لعجزها وقصورها وعدم توفير أبسط أنواع الحماية وتقاعسها في اتخاذ الإجراءات وذلك عبر توجيه

الانتباه عن العجز السائد فيها نحو نظرية المؤامرة. فعند توجيه الغضب نحو العدو الخارجي الذي نشر الفيروس في مجتمع معين، أو من خلال نشر شائعات ومعلومات لا تتوافق مع ما تنشره منظمة الصحة العالمية واعتبارها جهة مدسوسة غرضها تدمير بعض المجتمعات وأنه يتم توجيهها من أجهزة المخابرات للدول العدو ونشر قصص تشبه القصص البوليسية في كيفية نشر الفيروس... الخ فإن الاحتقان الداخلي يخف لفترة كونه يسكن الأمر لمدة إلا أن ذلك لا يحل المشكلة.

بعض الأشخاص الباحثين عن الشهرة انقسموا إلى عدة فرق. فمنهم فريق العلاج الشعبي الذين استنفدوا كل ما في جعبتهم من وصفات يطبقونها على جميع الأمراض من العدوى البسيطة إلى أعقد الأمراض العضوية لعل واحداً منها قد يصيب، وبعضهم ربط بين علاجه والدين، ومن بين هؤلاء جماعة شرب بول الناقة (يقابله شرب بول البقر في الهند).

وفريق آخر اعتبر هذا عقاب من الله، وأن الله قد أرسل الفيروس كجندي من جنوده بعد أن مل من الناس وتصرفاتهم وأنه يريد استبدالهم بقوم أفضل، بالمقابل اعتبر البعض أن الفيروس ذو طبيعة شيطانية على اعتبار أن الله لا يمكن أن يصدر عنه شر. وفي البداية كانت الصين موضوعاً للشتمات، وتمت مهاجمة كل من أكد أن الفيروس لا علاقة له بالإيمان والكفر، ثم خفت هذا الصوت وأعيد تفسير الأمر بعد أن انتشر الفيروس في فتمت بكل بساطة إعادة التأويل واعتبر أن الفيروس مرسل "للكفرة" في كل المجتمعات، وتم اعتبار أن الله يعاقب هؤلاء فقط.

وفريق اعتبر أن الطائفة الأخرى هي المقصودة بالفيروس وأصبح شغله الشاغل في توجيه الأنظار نحو الطائفة الأخرى ومدى الإصابات فيها، مبرراً ضلالها، وصحة مذهبه من خلال الفيروس الذي أرسله الله لينتقم له وفي الوقت نفسه اعتبر نفسه بعيداً عن الخطر وأن إيمانه سيحميه.

وبعضهم ضرب عرض الحائط بكل تعاليم الأديان بضرورة صيانة النفس والحفاظ عليها ومسؤولية الإنسان عن جسده ونفسه واعتبر أنه لن يصيبه شيء طالما يحتمي بالمسجد الفلاني أو بالمقام الفلاني. وبدأ بإطلاق استعراضات هستيرية، معتبراً أن هذه حرب على الإسلام كي يغلقوا المساجد والأماكن الدينية لأن المساجد تهدد الغرب حسب زعمه. وهؤلاء من أخطر الأنماط لان التعصب والتطرف لديهم مرتبط باضطرابات في الشخصية يقودون الناس إلى إنكار الخطر الحقيقي المهدد وإلى إلقاء أنفسهم في التهلكة، متبعين في ذلك "النظرية التي تثبت صحتها بنفسها"، وجوهر هذه النظرية هو وفق مبدأ الاحتمالات: أن ينجو الإنسان صدفة أو يصاب. فإذا نجا من الفيروس فهذا لأن "الولي" قد حماه وإذا أصيب فهذا يعني أنه إيمانه وتضرعه لم يكن عميقاً كفاية. وفي كلتا الحالتين فإن النظرية صحيحة. وبما أنه لا يوجد دليل لا على صحتها ولا على بطلانها

فإن العامة تنقاد بسهولة وتغرق أكثر في ممارسات لاعقلانية ليس لها علاقة بالوقاية أو عدمها من الخطر الحقيقي.

الذين يعدون أنفسهم "متدينون" اتهموا العلمانيين، والذين يعدون أنفسهم "علمانيون" اتهموا "المتدينين". وكل هذا كمن يحارب طواحين الهواء، وتوجيه الأنظار جوهر المشكلة المتمثل في العجز والطفالة. لم نقرأ أو نسمع عن حشد الطاقة بالاتجاه الصحيح، بضرورة تصحيح المسار والالتفات إلى المنقذ الحقيقي من مأساتنا: "إنسانيتنا ومصيرنا المشترك في سفينة الحياة" والتي تتطلب منا الاهتمام بالعلم كمنقذ للبشرية من ويلاتها وإعادة الاعتبار للإنسان بغض النظر عن جنسه ودينه، والاهتمام بالعلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء في البلاد العربية وتأسيس مراكز أبحاث حقيقية ومنشآت صحية تقوم على المعرفة وليس على الخرافة.

كل ذلك كشف الغطاء عن مدى هشاشة النظم السياسية والاقتصادية والدينية والتعليمية القائمة وإذا كانت هذه الأزمة "محنة" تواجه البشرية جمعاء، فإنها في الوقت نفسه فرصة لإعادة التفكير بكل شيء. فالأساليب المتبعة حتى الآن في السياسة والاقتصاد والتعليم والممارسات الدينية، لم تقد إلى أية حلول بل خلقت الكثير من الأزمات. فإذا استمر هذا التيه فحتى أبواب السماء لن تظل مفتوحة.